

عمر بن عبد العزيز

٦٢ - ١٠١ هـ

للاستاذ عبد الحميد العبادى

ود الحكماء من قديم لو أن ملوك الأرض كانوا فلاسفة ،
أو لو أن الفلاسفة كانوا ملوكا ؛ اذن لا فترت السياسة بالآخلاق
على أساس ثابت مطرد . وتعاونتا جميعا على النهوض بالمجتمع
الإنسانى ، ولاستحلال عالمنا المضطرب جنة راضية ونعما مقيما .
وكثيرا ما كتب الحكماء فى نظم عامة ابتدعتها أخيلتهم
وزعموها توفر على الناس فى هذه الدنيا اللذة والسعادة ، وتنفى عنهم
الآلم والشقاوة : فعل ذلك أفلاطون فى « الجمهورية » والفارابى
فى « أهل المدينة الفاضلة » وتوماس مور فى « أوطوبيا » كما فعله
كثير غير هؤلاء ممن ترسم آثار أفلاطون ونسج على منواله .

هذا الحلم الجميل تحقق أو كاد فى التاريخ مرة واحدة على ما نعلم ،
وذلك على عهد الخليفة العربى المسلم عمر بن عبد العزيز ، فهو رجل
القت الى المقادير بزمام أعظم دولة فى الأرض فى زمنه ، ومع ذلك
استطاع ان يقدح شهوته حتى كاد يميته ، وان يروض نفسه حتى
ردها الى الرضا بالقليل الأقل . ثم تجرد لأصلاح رعيته من طريق
العدل والرفق والرحمة ، فأذاقهم لذة الأمن واليسر والرضا . وفوق
هذا وذاك قد ترامت همته الى ما وراء قومه وبلاده ، فطمع أن يجمع
شعوب الأرض طرا فى نظام واحد يقوم على مبادئ الأخوة
والعدالة والمساواة . وقد وفق ابن عبد العزيز فى هذا المطمع البعيد
توفيقا حذا من مقداره ياللاؤسف ، ان عجلت اليه المنية وهو لا يزال
فى ميعة العمر وعنفوان الحياة .

قد اجتمع فى تكوين هذه الشخصية العجيبة عاملا الوراثة
والبيئة معا ، فأبوه عبد العزيز قد ولى مصر عشرين سنة دلت
على ثقافته العالية واضطلاعه بأعباء الحكم ، وبصره بتألف القلوب ،
وجده مروان بن الحكم هو ذلك السياسى الجرى العارف
بنفسية الأفراد والجماعات ، والخير بانهاز الفرص عند إمكانها .
وأما نسبه لأمه ، فأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ،

وكفى بانتسابه الى تلك الشخصية العظيمة تعريفا بسبب من أسباب
ورعه وجراته فى الحق على نفسه وغيره .

وليس أثر البيئة فى تكوين ابن عبد العزيز بأقل من أثر الوراثة ،
فقد ولد بالمدينة عام ٦٢ هـ وشب بها على أصح الروايات . فلما ولى
أبوه مصر عام ٦٥ هـ حل اليه ، ولبت بمصر زمنا ماء ، نعم فيه بصحة
أبيه ومشاهدة آثار الحضارة المصرية والبيزنطية ، وهنا رحته
دابة فشج شجته التى عرف من أجلها بأشج بنى أمية ، فلما بلغ سن
التأديب بعث به أبوه الى المدينة ليتأدب بها وينشأ نشأة إسلامية
مدنية ، وكانت المدينة اذ ذاك بيئة مركبة غير بسيطة ، يعرف فيها من
يحلها الروح الدينى الصحيح مائلا فى نفر من بقايا الصحابة وكبار
التابعين ، أمثال أنس بن مالك وعبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب
وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، كما يعرف فيها الجانب
الأرفه من الحياة ممثلا فى مثل عبد الله بن جعفر أول نصير لصناعة
الغناء العربى ، وطائفة من المغنين والقيان يتقدمها معبد ومالك بن أبى
السمح المغنيان المديان الشهيران . ثم ان المدينة كانت اذ ذاك
من الناحية السياسية موطن للمعارضة التى تستند الى الكتاب والسنة
فى مقاومة الحكومة الأموية . فى هذه البيئة تخرج ابن عبد العزيز ،
فروى الحديث عن حملته ورواته ، ولقف صناعة الغناء وأعانه على
المساهمة فيها صوت ندى عذب . كما أشرب روح الحكومة الإسلامية
القديمة التى كانت تختلف عن الحكومة الأموية اختلافا كبيرا . الى
ذلك كله كان ابن عبد العزيز فتى مليح الخلقة ناعما مترفا كعادة
فتيان بنى أمية . يروى أنه أبطأ يوما عن الصلاة فسأله مؤدبه صالح
بن كيسان عن سبب أبطائه فقال : « كانت مرجلتى تسكن شعرى »
فكتب مؤدبه بذلك الى أبيه ، فبعث أبوه رسولا فلم يكلمه حتى
حلق شعره .

فى عام ٨٥ هـ توفى عبد العزيز بن مروان بمصر ، وكان
ابنه عمر قد تم تأدبه بالمدينة ، فاجتذبه الخليفة عبد الملك بن مروان
الى الشام وزوجه من ابنته فاطمة ، ثم ولاه (خنصرة) وهى بلدة من
أعمال حلب واغلة فى البادية . فلبث واليا عليها سنتين كاتنا من أنعم
سنى حياته وحياة زوجه . وقد أعجبه خنصرة حتى أنه عندما استخلف
اتخذها منزلا على عادة ملوك بنى أمية فى أيثارهم سكنى البادية على
الحاضرة . وفى عام ٨٧ اختاره الخليفة الوليد بن عبد الملك لولاية
المدينة بدلا من هشام بن اسمعيل المخزومى الذى أساء السيرة فى أهلها ،
ولاشك ان الوليد انما اختار عمر للمدينة لما يعلم من المشاكلة
القوية بينه وبين هذه الولاية ، ثم أنه بعد قليل ضم اليه مكة والطائف

فأصبح عمر بذلك أميرا على الحجاز كله .

كانت حكومة عمر بن عبد العزيز بالحجاز (٨٧ - ٩٣) حكومة شورية أبوية يمازجها من ناحيته الشخصية مقدار غير قليل من الحرص على الترف والنعم . فلا أول قدومه المدينة أصطفى عشرة من العلماء أتخذهم نصحاء ومستشارين يصدر في الأمور عن رأيهم ، ثم عكف على إصلاح شئون الحجاز فهدم المسجد النبوي وأعاد بناءه على نحو أوسع وأروع ، وأصلح الطرق ، وأكثر من الآبار ، فتيسر بذلك الماء في ذلك القطر الظمى ، كما أنه عمل بالمدينة فوارة يستقى منها أهلها . وقد أعجب الخليفة بتلك المنشآت عندما زار المدينة سنة ٨٩١ هـ وأمر للفوارة بقوام يقومون عليها ، وإن يسقى أهل المسجد منها ، ففعل عمر ذلك . ومن مظاهر بساطة عمر في أمارته بالحجاز أنه جلس مرة في المسجد يرتل القرآن بصوته العذب فتأذى بذلك سعيد ابن المسيب على غير علم منه بصاحب الصوت ، فلم ير عمر بأسا بأن ينتحى ناحية أخرى من المسجد . وبلغه أن قاضيه على المدينة استخفه الطرب عند ما سمع جارية تغنى حتى أخرجه من وقاره ، فعزله عمر ، ولكن القاضى المعزول تحدى الأمير لسماع الجارية ، فسمعها عمر وكاد هو أيضا يستخف ، فعذر القاضى وردّه الى عمله . وعند ما قدم الفرزدق الشاعر المدينة وكانت السنة ممحلة وخاف أهل المدينة لسانه رفعوا أمرهم الى عمر فأخرجهم من المدينة ونهاه أن يعرض لأحد من أهلها بمدح أو بهجو . أما من حيث حياة عمر الشخصية في تلك الفترة فكان مترفا مسرفا في الترف ، يرخى شعره ويسبل أزاره ، ويلبس الثوب تبلغ قيمته مئات الدنانير ، ويكثر من الطيب حتى لتقصف ريحه اذا مشى مشيته « العمرية » وهى مشية كان يتبخر فيها ويختال ، ولملاحظها كانت الجوارى تأخذها عنه .

حادث واحد نغص على ابن عبد العزيز أمارته على الحجاز : ذلك مصرع خبيب بن عبد الله بن الزبير فقد نقم الخليفة الوليد من خبيب أشياء بلغته عنه وكتب الى عمر أن يضربه ، فضربه عمر ضربا كان فيه هلاكه . وقد جزع عمر لذلك جزعا شديدا ، ويقولون أنه لبس المدوح سبعين يوما حدادا على خبيب ، ثم أقطع عن ذلك . فلما استخلف دفع دية خبيب الى أوليائه ، ومع ذلك كان يرى أن الله لا بد مؤاخذه بذلك الذنب ، فكان اذا بشره أحدهم بالجنة قال : « وكيف بخبيب ! »

وغدا الحجاز ينعم بأمن وعافية مما أبتليت به الأمصار الأخرى ولا سيما العراق من الفتن والقتال ، ولذلك أخذت فلول ثوار العراق والخوارج تغد على الحجاز فرارا من وجه الحجاج وسيفه

المسلول ، فكان ابن عبد العزيز يحيرهم ويحميهم . ثم لم يكتف بذلك فكتب الى الخليفة يندد بعسف الحجاج وبطشه . فاضطغها الحجاج عليه وكتب الى الخليفة يشكو من أن أمير المدينة يحير «مراق» العراق وإن ذلك موهن له . وقد نظر الخليفة في الأمر مليا ، ثم رأى أن يشد أزر الحجاج في هذه الخصومة ، فالعراق أخطر من الحجاز ، والحجاج أولى بالمصانعة من عمر بن عبد العزيز . فصرف عمر عن الحجاز بأمرين أحدهما للمدينة والآخر لمكة . فكان أول ما صنعا أن أخرجا من الحجاز الى الحجاج كل عراقي في الجوامع والأغلل ، وتوعدا كل حجازى أنزل عراقيا أو أجره دارا .

خرج ابن عبد العزيز من الحجاز الى الشام مغاضبا للخليفة الوليد ، وقد ساءه أن عزل عن أمانة المدينة حتى قال لمولاه مزاحم وهو ببعض الطريق : « أخشى أن أكون ممن تنفيه المدينة » إشارة الى الحديث الوارد في أن المدينة تنفى خبثها . فلما حصل بالشام شغل نفسه بالغزو فرارا من وجه الوليد والتماس الأجر والسلوة . فلما توفي الوليد عام ٩٦ هـ وولى سليمان بن عبد الملك لزمه عمر ، وكان أثيرا عنده يستشير سليمان وينزل على رأيه في كثير من الأمور ، على أن عمر نفعه أن عزل عن الأمانة على النحو المتقدم فقد دفعه ذلك في السنوات الست التي قضاها بالشام قبل أن يستخلف (٩٣ - ٩٩) الى النظر في حال الدولة العربية في أواخر القرن الأول الهجرى

نظر فأذا الدولة الإسلامية قد أبعدت في التخلي عن الصفة الدينية التي كانت لها قديما ، وأسرفت في الاصطباغ بالصبغة الزمنية المتطرفة ، أليست حكومة عبد الملك والوليد والحجاج ويزيد بن المهلب حكومة تجبر وطغيان ؟ أليست حكومة سليمان حكومة الشهوة العطشى والجسد المنهوم ؟ لقد أصبح السلطان يعتمد في شد أركانه وتقوية دعائمه على القوة الغشوم والسيف المرهف . أما العدل ، وأما الرفق ، وأما الرحمة . فلم يعد لكل ذلك عنده محل ولا حساب . ونظر فأذا أموال الدولة قد عراها الخلل والاضطراب من كل نواحيها . فنحو ثلث أموال الدولة قد استحال ملكا خاصا لبني أمية ، وأكثر الضرائب يجبي من غير وجوهه ، ويصرف في غير مصارفه الشرعية . فكثير من الأراضي الخراجية التي لا يصح تملكها قد استحال أرضا عشرية يملكها أفراد من المسلمين يؤدون عنها الزكاة التي مقدارها أقل من مقدار الزكاة . وكثير من الموالى أو مسلمى الأعاجم لا يزالون مع أسلامهم يؤخذون بالجزية لغير ما سبب سوى أراعمال لحظوا في أسلامهم معنى الفرار من الجزية فأبوا أن يعفوا منها . هذا فوق أن هؤلاء الموالى لم يكونوا

عبد العزيز من جهة ؛ وفي مقدار تأثيره بالحياة الاسلامية العامة لذلك العهد من جهة أخرى . لقد كان في عمر نزوع طبعي الى الزهد ، فهو كما رأينا من سلالة عمر بن الخطاب ؛ وكان في طفولته يحاول التشبه بخاله الزاهد عبد الله بن عمر ، ولما تورط في أمر خبيب لبس المسوح سبعين يوماً يأسا من غضارة العيش ، ولذاذة الحياة ، فلما نصح بالاقلاع عن ذلك أفلح . ثم ان الحياة الاسلامية قد أملت بها في أواخر القرن الأول نزعة زهد جاءت كرد فعل للبادية التي طغت عليها اذ ذاك . هذه النزعة التي تحولت بعد الى الحركة الصوفية المشهورة تتيبنها في طبقة العباد والنسك التي يتكلم عنها صاحب العقد الفريد طويلاً . وقد خضع عمر لتأثير هذه الطبقة وهو في المدينة ، فكان من أشد الناس تأثيراً فيه عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة . فلما صار بالشام خضع لتأثير رجلين يعتبران بحق من أقطاب عصرهما علماً وزهداً وورعاً . هذان هما الحسن البصري ورجاء بن حيوة الكندي . أما الحسن فقد اتصل به عمر من طريق المراسلة ، ولعله قد اخذ عنه كراهية القول بالقدر الذي ينسب الى الحسن خطأ . وأما رجاء فقد كان مستشار سليمان بن عبد الملك ، وكان لذلك أقرب الى عمر وأقوى به اتصالاً .

وبعد فلتن كان النظر في الأحوال العامة قد انتج لعمر ضرورة الرجوع الى الدين في اصلاح غيره ؛ فقد انتج له مزاجه الخاص وتأثره بالزهد من أهل عصره ضرورة الزهد من اجل اصلاح النفس وتهذيبها . الدين والزهد ، هاتان هما الخلتان اللتان كانتا تعمران فؤاد عمر وقلبه عندما أخذ صلاحه الشام يرشحونه للخلافة . (يتبع)

شركة مصر لغزل ونسج القطن

تعلن شركة مصر لغزل ونسج القطن أنها أتمت تجهيز مبيضة ومصبغة بمصانعها بالمحلة الكبرى لتبييض وصباغة كافة أنواع الخيوط والأقمشة القطنية والكتانية ولتجهيزها تجهيزاً نهائياً

وهي على استعداد تام لتبييض وصباغة كل ما يطلب منها بأسعار غاية في الاعتدال ، ويسرها أن تجب عن كل استعلام يطلب منها

والعرب سواء في الحقوق ، فكانوا يغزون الى جانب العرب دون ان يكون لهم عطاء . ثم ان عدم أنفاق الزكاة في مصارفها الشرعية قد أدى الى كثرة الفقراء والمساكين والمرضى والزمنى ممن جعل لهم الشرع حقاً في الصدقات العامة . ثم نظر فرأى بأس الأئمة الاسلامية بينها شديد ، قد توزعت الفرق المتباغضة والأحزاب المتناحرة ، فمن شيعة يطوون الصدور على الاحن لما نالهم به بنو أمية من أذى ومساءة ، ومن خوارج يتحينون الفرص لهدم النظام القائم وأحلال نظامهم محله ، ومن موال قدسأهم الا يسوى بينهم وبين العرب في الحقوق العامة ، ومن مضرية ويمينية وربعية ، كل يحاول ان يكون له النفوذ السياسي من طريق الولاية على الأقاليم والتأثير في السلطان نفسه . هذا في الداخل ، أما في الخارج فرأى عمر ان الجهاد الذي شرع على عهد النبي صلى الله عليه وسلم لمنع العدوان على النفس والعقيدة ، والذي كان على عهد الشيخين ضرورة اقتصادية ملحة ، قد استحال في زمن الأمويين أداة للتوسع في السلطان ، وجر المغنم الوافر ، والسبي الرائع ، حتى قال الشاعر :

الا ذهب الغزو المقرب للغنى ومات الندى والجود بعد الملب نظر عمر في كل ذلك فردّه الى سبب جوهرى واحد هو انحراف الجماعة الاسلامية عن الاساس الذي قامت عليه ، أساس الدين . والدين عند عمر هو الدين المتصل بالحياة العامة يمدّها ويغذيها بقوته المعنوية ، والممسك لشئون الجماعة ان تضطرب وتصبح فوضى ، هو الدين الذي أثره في الحاكم شعور قوى بالمسئولية وعمل صادق على أسعاد العباد والترفيه عنهم ، والذي أثره في المحكومين اقتضاء للعدل اذا حرموه ؛ وأنفة من الضيم والذل اذا ما أريدوا عليهما ، الدين عند عمر بن عبد العزيز : هو الحق والانسانية عبر عنهما بلفظ واحد .

وبينا عمر يرسل الفكر في أنحاء الحياة الاسلامية العامة متعرفاً علماً اذا به في الوقت نفسه قد اخذ يخضع لتطور نفساني عنيف . لقد اخذ حرصه على الترف والتنعم يضعف رويداً رويداً ، وميله الى الزهد والتنسك يقوى شيئاً فشيئاً ، واصبحت نظراته الى الحياة نظرة الى متاع قليل زائل ، لا يعدل شيئاً بجانب طمأنينة النفس وراحة الضمير ، كما أصبح دائم التفكير في الموت وفيما بعد الموت ، فالموت آت لا ريب فيه ؛ والموت برزخ مؤدّ اما الى جنة واما الى نار ، والمتنهي على كل حال رهين بما يكون عليه المرء في العدة الدنيا من ذلك البرزخ الرهيب .

ماسر هذا التطور العجيب الذي جعل من ابن عبد العزيز الناعم المترف ناسكاً زاهداً متصوفاً ؟ تبين ذلك السر في نفسية ابن